التي تصنعها تناقضاته، وان يستحيل على الاتجاهات المنبثقة منه التعايش ضمن البوتقة ذاتها. فقد أخذت اتجاهات هذا الفكر، السلفي والقومي والليبرالي، يتباعد بعضها من بعض لتعكس، في صراعها الداخلي، اتجاهات وأوضاع الطبقة البورجوازية في كل لحظة من لحظات تطوّرها.

باختصار، يمكن القول ان واقع كون فكر النهضة لم يخرج، من الناحية الاساسية، من رحم الايديولوجيا القديمة التي كانت سائدة قبل عصر النهضة، بل نما وحاول التغيير من داخله، هو الذي مهّد السبيل الى انبثاق التيار السلفي، الذي تحوّل، مع الوقت، الى حركة سياسية وحزب سياسي. ففي حركة مجرى الصراع السياسي، والاجتماعي، كانت عملية الفرز والاستقطاب بين تيارات فكر النهضة تزداد اتّساعاً. وكان فكر الشيخ محمد عبده نقطة انعطاف بالغة الأهمية على هذا الصعيد. فقد انطوى تفكير هذا الرجل «على توتّر دائم بين أمرين، لا يمكن فهم احدهما فهماً تاماً بالاستناد الى الآخر، لكن لكل منهما مطلباً خاصاً به لا مفرّ منه: الاسلام الذي يذهب الى انه يعبّر عن مشيئة الله في باب قواعد سلوك الانسان في المجتمع، وحركة المدنية الحديثة التي لا مردّ لها، المنطلقة من اوروبا، والآخذة، الآن، في الانتشار عالمياً، والتي تفرض على الانسان، بطبيعة مؤسساتها، تصرّفاً معيّناً»[١]. لقد كانت الثمرة الرئيسة لهذا «التوتر» ان التوازن الذي حاول محمد عبده ان يقيمه، لم يصمد ولم يقو على الحياة. فقد تعمّق الخلاف بين تلاميذه، وتبلور في اتجاهين رئيسين: اتجاه ليبرالي تمثّل بقاسم أمين ولطفي السيد وعلي عبد الرازق وغيرهم؛ واتجاه سلفي تمثّل بالشيخ رشيد رضا، ثمّ بالامام حسن البنّا، مؤسّس جماعة الاخوان المسلمين.

الفلسطينيون وفكر النهضة

لأسباب عديدة، لم يتهيّأ للفلسطينيين، خلال القرن الاول من عمر عصر النهضة، دخول فكر النهضة، أو المشاركة فيه. فقد كان «وصول المعرفة والآراء الجديدة للمسلمين العرب في سوريا [بما في ذلك فلسطين] أكثر بطأً»[٢]. ويكمن السبب الأساس وراء تأخّر، وبطء، أفكار النهضة في صفوف الفلسطينيين، في ضعف مستوى التطوّر الاقتصادي والاجتماعي الذي كان يعكسه، على نحو بارز، ضعف الانصهار القومي والاجتماعي. اذ لم تكن الهوية القومية (الوطنية) للفلسطينيين كشعب قد تبلورت بصورة واضحة. ولعلّ ذلك كان من الاسباب الرئيسة التي جعلت نابليون بونابرت، في اثناء حملته على فلسطين، لا يخاطب الفلسطينيين بـ «الشعب» أو بـ «الأمّة» كما خاطب «الأمة المصرية»، بل خاطب فقط «سكان أقضية غزة والرملة ويافا»[٣]. ولقد كان ضعف الانصهار القومي نتيجة أساسية لغياب طبقة اقطاعية موحّدة تحكم بسلطة مركزية واحدة على مستوى فلسطين، كوحدة اقليمية واحدة. فقد تميّز الاقطاع في فلسطين بطابعه العشائري، والعائلي. وزاد في استفحال هذا الامر التقسيم الاداري العثماني لفلسطين. «فمن الناحية الادارية، كانت فلسطين تشتمل على سنجق (متصرّفية) القدس وعلى سنجقي عكا ونابلس التابعين لولاية الشام، الى ان أُلحقا بولاية بيروت بعد اعادة تنظيم ولاية الشام، العام ١٨٨٣. وكان سنجق القدس، الذي شمل معظم اجزاء فلسطين وأكثر من ثلاثة أرباع سكانها، تابعاً لوزير الداخلية العثمانية مباشرة»[٤].

من الناحية العملية، بدأت مظاهر تأثر الفلسطينيين بفكر النهضة في النصف الثاني من القرن التاسع عشر، وذلك عندما بدأ بعض التحوّلات الهامّة يطرأ على التشكيلة الاقتصادية ـ الاجتماعية الفلسطينية، نتيجة سياسة الاصلاح العثمانية، التي بدأت بصدور «خط كلخانه الشريف» العام ١٨٣٩، ثمّ «خط همايون» من جهة، وتغلغل رأس المال الاوروبي، من الجهة الاخرى[٥]. وقد